



العصبية الحزبية المتجردة في ساحة العمل الإسلامي ظاهرة مؤذية: أذهبت ريح الدعوة، وأثقلت صفوف الدعاة بالتدابير والتنافر، وقلَّ من يَسْلُم منها؛ حتى بعض الناس الذين لا ينتمون إلى تجمعات حزبية.

نعم! ربما تكون هناك مسوغات فكرية أو منهجية تؤدي أحياناً لمثل هذه الخلافات، لكن الواقع يشهد أيضاً خلافات أخرى ليس لها تفسير مقنع إلَّا الهوى والتعنت والتعصب!

وقد كُتِبَ في هذا الموضوع كتابات عديدة ومفيدة، وتنادى لعلاجها الناصحون. وأحسب أننا أمام قضية كبيرة لا يمكن معالجتها بالتباكى والإلقاء التبعة واللامة على الآخرين، لكننا في حاجة ماسَّة للبحث عن الحلول العملية التي قد تُسَهِّل في التخفيف من حدة الخلاف؛ إن لم تقلع جذوره. ولا أقل من أن تزيل بعض مظاهر البغي أو الاحتقان والجفوة...

ومن المقترنات التي أضعها بين يدي الدعاة الكرام ما يلي:

أولاً: التواصل الأخوي:

جزء كبير من الجفوة الحاصلة بين الدعاة إنما هو بسبب الإعراض والقطيعة وتناقل الكلام بين الأتباع؛ فإذا حرصوا على التزاور وأداء الحقوق الشرعية الواجبة: كإجابة الدعوة وزيارة المريض...

ونحو ذلك؛ كان هذا سبباً في الألفة والأنس... ومثل هذه اللقاءات ليست مضيعة للوقت أو إهاراً للجهد؛ كما قد يظن بعضهم، بل فيها من المصالح الدعوية العاجلة والآجلة ما يَجِل عن الوصف، وقد صح عن النبي - صلي الله عليه وسلم - قوله: «**ليس الواصل بالملكاوى**»^[1]

وكثير من أحكام الناس على الآخرين ناتجة في بعض الأحيان عن انطباعات متناقلة، أو وقوعة معتبرضة، أو فظ يتجاهل الإنصاف، وهو ما قد يتحول إلى مجازفات أو تعيمات لا تنس بال موضوعية أو الإنصاف، لكن حين يجلس الدعاة مع إخوانهم، ويسمعون منهم مباشرة وبدون واسطة، ويبذلون لهم النصيحة بصدق وإشفاق، ويدبرون حواراً راشداً وهادئاً... تتضح لهم منطلقاتهم واجتهاداتهم؛ فيشيع بذلك حُسْن الظن والتماس العذر، وليس من الضروري أن يحصل الاتفاق في جميع الاجتهادات.

ولم أَرْ لرَدِّ قالة السوء وتناقل الشائعات في حق العلماء والدعاة، مثل اللقاء والتواصل المباشر؛ فهما البلسم الذي يشفى

القلوب ويقطع سبل الشيطان، وهذا من الدفع بالتي هي أحسن المأمور به شرعاً. قال الله - تعالى -: {إِذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَانَهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُنُوبٌ عَظِيمٌ}. [فصلت: 34-35].

ثانياً: المشاريع المشتركة:

التعاون في تنفيذ مشاريع دعوية مشتركة، مع الحرص على الوضوح والشفافية والضبط الإداري والمالي عند التنفيذ؛ حتى لا تكون الأخطاء اليسيرة سبباً للتهاش والتدافع، ومن ذلك: عقد الندوات أو المؤتمرات أو الدورات التربوية... ونحوها. وهذه الأعمال المشتركة فرصة كبيرة للتعارف وكسر حاجز الجفوة.

لقد وجدت أن الأعمال الدعوية المشتركة تبني من معاني الإخاء والمودة بين الدعاة ما لا يخطر على بال، كما أن الطلاب والأتباع عندما يتبعون هذه البرامج المشتركة وينظرون إلى اجتماع الرموز الدعوية وتعاونها، فإن ذلك يكون سبباً في امتصاص بعض الاحتقان الذي قد يطغى في بعض الأحيان بينها؛ والقدوة لها أثر في التربية كبير.

وهناك عدة عوامل تساعده على إنجاح هذه المشاريع المشتركة من المهم استصحابها والحرص عليها. منها:

1. اختيار نوعية خاصة من الدعاة والرموز لمثل هذه الأعمال، من أهم ما يتميزون به: الأريحية والتطاوع وسعة الصدر والقدرة على احتمال الآخرين واستيعاب اجتهاداتهم وآرائهم. والشخصية التوافقية السمحاء لها أثر كبير في لم الشعث، وتطهير القلوب، وتقريب النفوس، كما أن الإنسان الحاد اللجوء المماري لن يجني إلا الخصومة، وهذا أحد مقتضيات قول رسول الله - صلي الله عليه وسلم - : «تطاوعا ولا تختلفا»[2].

2. الحرص في المشاريع المشتركة على استدعاء جوانب الاتفاق، وتجنب إثارة مسائل الاختلاف قدر الإمكان. وأحسب أن هذا مدخل مهم للتألف وترسيخ أواصر الأخوة والتعاون.

ومجالات الاتفاق كثيرة جداً، ويمكن أن نبني من خلالها صرحاً من التعاون الجاد والمثمر، ومن ذلك - مثلاً - : (التعاون في نصرة النبي - صلي الله عليه وسلم - ، والدفاع عن المسجد الأقصى، وحماية الأخلاق من طوفان الرذيلة ...) ونحوها كثير والله الحمد.

3. ينبغي أن يكون التعاون بادئ الأمر في المشاريع قصيرة المدى، من أجل تعزيز الثقة والطمأنينة، وبناء جسور التواصل والتكافل... وإذا لاحت بوادر الاختلاف، فعلى العقلاه أن يبادروا إلى درئه قدر الإمكان؛ حتى ولو أدى ذلك إلى تأجيل التعاون، ولعل ذلك من دلائل قول النبي - صلي الله عليه وسلم - : «اقرئوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم؛ فإذا اختلفتم فقوموا عنه»[3].

4. الأعمال المشتركة لا يمكن أن تنجح على الإطلاق إذا عُرضت على الآخرين بمنطق المشيخة والأستاذية، أو بروح الوصاية والاستعلاء. والطريق الصحيح للنجاح يتحقق بالحرص على الموضوعية والإنصاف، والعبرة ليست بأن يتقدم فلان أو يتأخر فلان، وإنما العبرة بمن يحقق الهدف الدعوي المشترك في أمثل صورة، وما أجمل قول الإمام الشافعي: (ما كلمت أحداً قط إلا ولم أبالي بِيَنَ اللَّهِ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِي أَوْ لِسَانِهِ)[4]!

وأحسب أن التسابق على التصدر، والتدافع على الظهور، من أعظم أسباب الاختلاف في الأعمال المشتركة، وقد تتبه الفضيل بن عياض إلى هذا وهو يقول: (ما من أحد أحب الرياسة إلا حَسَدَ وبغى، وتتبع عيوب الناس، وكراه أن يُذكَرَ أحد بخيـن)[5].

5. من المهم إعطاء الطرف الآخر قدره ومكانته الالائقة به، والتعامل معه بما يحفظ له هيبته، بلا تكـلف ولا تصـنـع، كما جاء في

حديث عائشة - رضي الله عنها - : «أمرنا رسول الله - صلي الله عليه وسلم - أن نُنزل الناس منازلهم».[6]

6. والبحث عن الكمال المطلقاً فيمكن تعاون معهم متذر، لكن العبرة بكثرة المحسن وغلبة المحامد، (والمنصف من اغتر قليلاً خطأ المرء في كثير صوابه)[7].

خلاصة الأمر: إن بناء أرضية مشتركة تجتمع في رحابها القوى الدعوية الفاعلة بتألف وتكامل، سيحقق نقلة نوعية في رؤيتنا وبرامجنا الدعوية، وسيؤسس لقاعدة صلبة من الإخاء والتعاون.

ثالثاً: الذبُّ عن أعراض الدعاة والدفاع عن حقوقهم:

إذا كان القيل والقال وتتبع الشائعات وانتشار النقد الجارح، من أسباب الفرقة ومثيرات التعصب والخلاف، فإن حُسْن الصلة، والذب عن أعراض الدعاة، والدفاع عنهم، والانتصار لهم بالحق، من أعظم أسباب الألفة وتقريب وجهات النظر؛ ويتأكد ذلك في مواجهة الاتجاهات العلمانية أو الليبرالية التي لا ترقب في مؤمن إلّا ولا ذمة.

وأحسب أن هذا ليس من أبواب التفضيل أو المنة، أو الإدلال على الآخرين؛ بل هو واجب شرعي أمر به النبي - صلي الله عليه وسلم - بقوله: «من ذبَّ عن لحم أخيه بالغيبة كان حقاً على الله أن يعتقه من النار»[8]، ويؤكد ذلك قول النبي - صلي الله عليه وسلم - : «المؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضياعه، ويحوطه من ورائه»[9]. ومن الحزبية المقيمة التي تُسقط المروءة، بل العدالة، أن يُؤذنَى أحد العلماء، أو يُتَهمَ بالباطل، أو تُسلط عليه سهام الإعلام الآلة؛ فينظر إلى ذلك نظرةً لا مبالغة فيها وبعد اكتراش؛ بحجة أنه ليس من أصحابه. بل قد يصل الحال عند بعضهم إلى اللوم والتقرير وأنَّ ما يحصل له إنما كان بسبب قصوره ومنهجه المضطرب...!

وهذا - والعياذ بالله - من قلة التوفيق، ومن أعظم الخذلان، وقد صَحَّ عن النبي - صلي الله عليه وسلم - قوله: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله»[10].

رابعاً: التنسيق عند النوازل:

التشاور عند النوازل وتدارس المواقف المستجدة، يقرب وجهات النظر، وربما يوحِّد الآراء ويدرأ كثيراً من اللغط والقيل والقال.

ويتطلب ذلك شعوراً بالمسؤولية، وإحساساً بقيمة الطرف الآخر ومكانته.

وقد جرب الدعاة في بعض الدول التنسيق في الانتخابات الطلابية في الجامعات - مثلاً - فوجدوا أن التعاون والتكاتف يحقق نتائج إيجابية للجميع، كما أن التدابير يفتح الطريق ممَّهداً للعلمانيين وبقايا الشيوعيين وأعداء الإسلام.

وإذا لم يتحقق التعاون أو التنسيق، فليس أقل من التعايش السلمي بين الإسلاميين، كما يعبِّر عنه أحد المفكرين[11]، أو الحرص على كفِّ الأذى كما يرى كاتب آخر[12].

صحيح أننا إزاء تراكمات تاريخية تتناقل علينا بآثارها السلبية جيلاً بعد جيل، ولا شك أن افتقاع الحزبية من جذورها متذر جداً؛ فاماًن ذلك عقبات كثيرة، لكن الإحباط واليأس لن يُغيرا شيئاً من الواقع، وأرى أننا في أمس الحاجة إلى مبادرات جادة ومخلصة تتحمل تبعات ذلك ولوازمه. ولعلَّ هذا أحد مقتضيات قول النبي - صلي الله عليه وسلم - : «المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[13].

ومفتاح النجاح للمقبل على الإصلاح في مدارج هذا الطريق: تجريد القصد لله - عز وجل - وتطهير القلب من الأهواء

والتطلغات الأخرى، التي تفسد العمل وتذهب بحلوته. قال الله - تعالى - : {إِنْ يُرِيدُ إِصْلَاحًا يُوَقِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْهَا خَبِيرًا} [النساء: 35]، وقال - سبحانه - : {لَا خَيْرٌ فِي كَثِيرٍ مَّنْ نَجَّوَهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: 114].

[1] أخرجه: البخاري في كتاب الأدب، رقم (5991).

[2] أخرجه: البخاري في كتاب الأدب، رقم (2488)، ومسلم في كتاب الجهاد، رقم (1733).

[3] أخرجه: البخاري في كتاب فضائل القرآن، رقم (5060)، و (5061)، ومسلم في كتاب العلم، رقم (2667).

[4] مناقب الشافعى للرازى: (ص 360 - 361)، والفقىه والمتفقه: (2/26).

[5] جامع بيان العلم وفضله: (1/143).

[6] ذكره مسلم في مقدمة صحيحه معلقاً: (1/6).

[7] من كلام الحافظ ابن رجب في كتاب القواعد: (ص 3).

[8] أخرجه: أحمد: (45/483)، رقم (27609)، وصححه الألبانى في غاية المرام (431)، وصحبي الجامع، رقم (6116).

[9] أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب، رقم (4918)، وحسنه الألبانى في السلسلة الصحيحة، رقم (926).

[10] أخرجه: مسلم في كتاب البر والصلة من حديث أبي هريرة، رقم (2564)، وأخرجه البخاري في كتاب المظالم والإكراه من حديث عبد الله بن عمر، رقم (2442) و (6951) بلفظ: «لا يظلمه ولا يُسلم».

[11] قاله الأستاذ راشد الغنوشي في كتاب: حركة الاتجاه الإسلامي في تونس - مقالات في فقه الحركة، رقم (1).

[12] قاله الأستاذ أحمد فهمي في دراسة له منشورة في تقرير البيان الارتيادي السابع، (ص 211).

[13] أخرجه: أحمد (9/64)، رقم (5022)، والترمذى في كتاب صفة القيامة، رقم (2507)، وابن ماجة في كتاب الفتن، (4032).

مجلة البيان

المصادر: